

قوتها سرهما على يد السلطان محمد جلبي بن السلطان بايزيد الاول الذي كان  
أول من أحدث الحساكر البحرية في الدولة وارسال الصرة السلطانية الى  
الجرمين الشريفين

انما الترك أمة حربية وما كانوا أشد بأسا من العرب وأين فتوحاتهم  
من فتوحات العرب مع أن مدتهم أطول من مدة دول العرب كلها البلاد  
التي فتحها العرب هي التي نما فيها الاسلام وثبتت أصوله، وعلت فروعه  
ومعظم البلاد التي فتحها الترك كانت وبالاعلى الاسلام والمسلمين ولا تزال  
تندرم بالبلاء المبين. لا أقول إن تلك الفتوحات مما يمازجها الترك ويذمون  
ولكنني أقول إن الفضل الأكبر في الفتوحات الاسلامية للعرب وان الدين  
انتشر بالعرب واعتز بهم فأساسهم أقوى اساس، ونبراسهم أضوء نبراس،  
وهم خير أمة أخرجت للناس. ولا أنكر أن للترك فضلا، وذكاء ونبلا. ولا  
أحب أن أطيل القول في المقابلة بالفتوحات وما هو أكثر منها فائدة للاسلام  
والمسلمين فكل من له شمة من معرفة التاريخ الماضي والحاضر يعرف أن  
معظم البلاد التي تمكن فيها الاسلام هي مما فتحه العرب وانتشر الدين فيه  
بواسطة العرب. وسنأتي في مقالة أخرى على المقابلة بين الجنسيتين في العلوم  
والفنون والزراعة والتجارة وسائر أمور المدنية والعمران

﴿ الدين والدنيا والآخرة ﴾

(٣)

أثبتنا في المقالتين السابقتين أن العقل والنقل والفطرة البشرية، والاديان  
السموية متفقة كلها على أن الله تعالى انشأ الانسان من الارض واستعمره

فيها ليسمد بها لايشقى، وشرع له الدين ليوقفه بطلبها عند حدود الاعتدال ويعلمه قرن التمتع بالنعم بشكر المنعم، وذلك بان يؤمن بأنه هو الواهب لها. ويجمل مصالحه الخاصة، منطبقة على المصالح العامة ويسترشد في عمله بسنن الله في شريعته وخليقته جميعا كما يعلمه ان يجعل الدنيا مزرعة للآخرة فيأخذ نفسه فيها بالعبادات والفضائل النفسية، والمعارف الروحية، التي تكمل بها السعادة في الدنيا، ويتأهل بها للسعادة في الآخرة. ولم ترد هذه التعاليم كلها على كمالها الا في الديانة الاسلامية خاتمة الاديان. وما أخذت أمة من الامم بدين سماوي الا وحسنت حالها بالاخذ به في حياتها الدنيا وارثت عما كانت عليه قبل ذلك، خصوصا الاديان التي كانت قبل المسيحية وأقربها اليها اليهودية، فان الزهد في الدنيا والاعراض عنها لم يكن من تعاليمها ولم يعرف عندها قولا ولا عملا. وأما المسيحية فلم تكن الا اصلاحا في اليهودية وتميما لها، فقد صرح القرآن حكاية عن المسيح عليه السلام انه قال (ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم) ويروون عنه في الانجيل انه قال ما جاء لينقض الناموس وانما جاء ليتممه. فمن حق النصارى ان يكونوا يهودا آخذين بالتوراة في عباداتهم ومعاملتهم مع زيادة زهادة في الدنيا واعراض عنها. وأما المسلمون فلقد كانوا على صراط الدين، في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن الراشدين من بعده وكانت الزينة والطيبات من الرزق في أول نشأة الاسلام بالدرجة التي يقتضيها ذلك الطور المعانق لطور البداوة حتى ان الامام عليا كرم الله وجهه كان يرى ان أكل منع الخنطة (أي الخنطة المنخولة) من النعيم وهو أمير المؤمنين!! ولما فتحوا الممالك واستفحل

عمرانهم توسموا في تناول الطيبات واستعمال الزينة كما هو شأن الحضارة وما كان الجمهور من الصحابة واكابر التابعين ينكرون من هذا الا ما انتهى صاحبه الى السرف، وانغمس في الترف، لما يستمقبه هذا من الضعف عن حماية البيضة، والمجز عن تعزيز الامة. وربما أنكروا ذلك على من انتصب للارشاد وجعله الناس قدوة لهم فمثل هذا ينبغي ان يكون نذرا للبائس الفقير، وتسلية للماجز المسكين. وصرح غير واحد بان النبي والخلائم الراشدين كانوا يختارون شظف العيش في عامة الاوقات لاجل هذه الاسوة والقدوة قال في الاحياء: ان يحيى بن يزيد النوفلي كتب الى الامام مالك بن أنس « بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد سيد الاولين والآخرين . من يحيى بن يزيد بن عبد الملك الى مالك بن أنس . أما بعد فقد باعني انك تلبس الدقاق، وتاكل الرقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بابك حاجباً، وقد جلست مجلس العلم وضربت اليك المطي وارمحل اليك الناس فاتخذوك اماماً، ورضوا بقولك، فانق الله يا مالك وعليك بالتواضع. كتبت اليك بالنصيحة مني كتاباً ما اطلع عليه غير الله بحانه وتعالى والسلام» فكتب اليه مالك « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك بن أنس الي يحيى بن يزيد . سلام الله عليك. أما بعد فقد وصل الي كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والادب أتمك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . فأما ما ذكرت لي اني آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطيء، فنحن تفعل ذلك ونستغفر الله تعالى، فقد قال الله تعالى (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات

من الرزق» واني لأعلم ان ترك ذلك خير من الدخول فيه ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام»

فانظر كيف قيد بمحي الانكار علي الامام مالك بقوله: وقد جلست مجلس العلم الخ كانه يقول ان الامام القدوة ينبغي أن يراعي حال أضعف الناس لاسيما في الطور التي كانت فيه الامة يومئذ. ولقد أنكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب علي معاوية ما كان فيه من الابهة والسعة عند ما كان أميراً في الشام فاعتذر معاوية بحالة البلاد والامة المحكومة وانها لا تهاب الحاكم اذا كان رث الهيئة فقبل عذره . وقد لبس النبي صلى الله عليه وسلم الطيالة الكسروية ، والجة الرومية، وغير ذلك من اللبوس الفاخر، لئلا يظن الموسرون ان اباحة ذلك في القرآن لا تنافي انه مذموم أو مكروه وان اجتنب السرف والمخيلة .

ولقد بالغ رجل واحد من الصحابة الكرام في التزهيد، ورأى أنه يجب اتفاق كل ما زاد عن الحاجة فنفاه معاوية من الشام الي المدينة ونفاه عثمان الخليفة الثالث الي الربذة حتى مات فيها، وذلك خشية أن ينتشر رأيه بين الناس فيضعف همهم عن الكسب وعمارة الدنيا . ثم حدثت الفوضى العلمية والدينية في المسلمين عند . اشغل ملوك بني أمية ومن بعدهم زخرف الملك عن القيام بحقوق الخلافة فانتشرت التعاليم الفاسدة، والآراء والمذاهب التي كانت تنجم في زمن الراشدين فيبادرون لحصدها أو قلعها قبل أن يعلم بها جماهير الناس . ومن أضر ما حدث الغلو في التزهيد، ومهل الناس علي الاعتقاد بان الدنيا ضرة الآخرة علي الاطلاق وان كل عمل يطلب للدنيا يغضب الله تعالى . ومن كبر المصائب ان هذا التعليم كان ديدن الخطباء

والوعاظ والقصاص الذين لا يسمع العامة ارشاد الدين الامنهم وانه انتشر بين جميع الفرق الاسلامية فزرع أهله في قلوب الامة الاسلامية فسيل الكسل، ومقاومة ما تقتضيه الطبيعة والفطرة من الجد والعمل . ان الله تعالى زين للناس ما على الدنيا ليكون داعيا الى احسان العمل فيها كما قال ( انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ) وقد ورد في الحديث تفسير حسن العمل بالعقل أي ما يرشد اليه ، ولكن فريق المزهدين أو المكسبين فسروه بالزهد في الدنيا .

أخذ السواد من المسلمين هذه التعاليم بالقبول لانهم تلقفوها ممن يعتقدون بهم كمال الدين كالعباد والمتصوفة والوعاظ وتبعها تعليم آخر أشد منها ضررا وهو أن العلوم الدنيوية كالرياضيات والطبيعات وتبعها الطب والتشريح كلها مفسدة للمعائد، وقائدة الى الزندقة . وصارت هذه الآراء تقوى في الامة كلما ضعف العلم، وصار العلماء الراسخون يتعاملون الظهور بإبطال هذه الآراء والتعاليم خوفا من اساءة ظن العامة فيهم واتهامهم بالزندقة لانهم لم يدعوا اماما من أئمة المسلمين الا واتهموه في عصره بهذه أو ما يقاربها حتى ان منهم من عد الاشتغال بعلم المنطق كفرا: ذكر ابن الوردي في حوادث سنة ٦٣٩ من تاريخه ترجمة العلامة كمال الدين بن معية الذي فضله العلامة اثير الدين الابهرى على الامام الغزالي وقال فيها ان ابن الصلاح النقيه الشافعي المشهور سأل كمال الدين ان يقرئه المنطق سرا فقرأه عليه مدة ولم يفهمه، فقال كمال الدين يافقيه المصلحة عندي أن تترك الاشتغال بهذا الفن لان الناس يعتقدون فيك الخيروهم ينسبون كل من اشتغل به الى فساد الاعتقاد فكأنك تفسد عقائدهم ولا يصح لك من هذا الفن شيء . قال ابن الوردي «ولغلبة العلوم العقلية على كمال الدين اتهم في دينه وهذه هي المادة» فتأمل قول

المؤرخ « وهذه هي العادة » . والمشهور عن ابن الصلاح أنه كان يحرم المنطق  
قال في السلم

فابن الصلاح والنواوي حرما وقال قوم ينبغي أن يعلموا  
فلا ينظر أي التقاليد أصح ؟ على أنه يمكن الجمع بأنه رجع عن التحريم بهذا القول به  
ومن غريب تقلبات الزمان أن العلماء كانوا في العصور السالفة هم الذين يرغبون  
في العلوم الدنيوية لعلمهم أن الدنيا صياح الدين ومزرعة الآخرة وكانت العامة على  
خلاف رأيهم . وأما في هذا العصر فقد انحط العلم حتى صار العلماء هم الذين ينفرون  
وينفرون عن هذه العلوم والفنون وصار قسم كبير من العامة يرغبون فيها ويحملون  
أبناءهم على تعلمها . والسبب في هذا ظاهر فإن التطلع إلى سعادة الدنيا هو مرمى  
أبصار جميع الناس والعلوم الدنيوية في القرون السالفة لم تكن من وسائل الترقى في  
الدنيا وأما كان العلماء مسوقون إليها بإرشاد القرآن الطافح بالحث على النظر في  
ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، وكانوا مكتفين من الثمرة بقوة  
الإيمان ولذة العقل الذين فيها ولم يكن للعامة حظ من ذلك . أما العلم بالقرآن وما  
يرشد إليه من أنواع المعارف فقد ضعف في صنف العلماء وانحصرت فوائده هؤلاء  
الدنيوية في مناصبهم الدينية ، وأما العامة فانهم رأوا الفائدة فيها فأقبلوا عليها فكم من  
فقير حقير علم ولده فخرج موظفا أو مهندسا أو طبيا فاستغنى بماله ، واعتز بمجاهه .  
وقد ساءى العلماء العامة في هذا الاقبال عملا وان كان منهم من يذمه قولا

وذموا لنا الدنيا وهم يرضونها أفلا يوق حتى ما تدر لها ثعل

كتب الشيخ محمد راضي البحر اوي أحد أستاذة العلم في الازهر مقالات يذم  
فيها علم الحساب وتقويم البلدان وكتب غيره منهم يؤيد رأيه وزعموا أن جميع شيوخ  
الازهر على رأيهما في ذلك ولكنني علمت من بعض أهل الازهر أن الشيخ محمد  
راضي هذا بل والاستاذ الأكبر شيخ الجامع يعلمان ولدهما هذه العلوم  
يقول قائل إن التعهيد في الدنيا لا يؤثر في النفوس لكونه على خلاف سنن  
القطرة ولم يوجد في الامة من الزهاد الذين تركوا الدنيا باختيارهم ظاهرا وباطنا لاجل

الأخوة الأوفر قليل كإبراهيم بن آدم (رحمه الله تعالى) وأكثر المتحليين للتصوف المدعين الأعراض عن الدنيا للتقرب من رضوان الله تعالى كانوا وما زالوا يطالبون الدنيا بهذه الأعمال لأنهم وجدوها أقوى ذريعة للمال والجاه وهم في هذا أبعد عن زهد الحقيقي من الأغنياء لأن الزهد عمل قلبي كما سنوضحه بعد . وقد فضحهم الأئمة المحققون في التصوف كالغزالي وغيره فكيف تقول إن ذلك أضر بالمسلمين ؟ والجواب عن هذا واضح وهو على وجهين (أحدهما) أن من مضرت وجود الألف من رجال الدين عباداً وعلماً لأعمل لهم وإنما يعيشون حالة على الناس ومن الخلفاء الراشدين من كان صانعاً ومنهم من كان تاجراً . وما التكايا التي أحدثها المسلمون إلا كالأديار عند المسيحيين ، ولكنهم لا يوجبون على من دخلها أن يكون راحياً طول حياته و( ثانيها ) أن المضرة قد ظهر أثرها في مجموع الأمة فملا حتى هبطت من الأوج إلى الخضيب . وهكذا شأن التعاليم النافعة والمضرة لا يعرف تأثيرها إلا بمثل ذلك . وإن شئت تعليلاً عقلياً يثبت لك تأثير الغلو في التزهيد باسم الدين على ما فيه من مخالفة سنن الفطرة فتأمل في حال كل من يعمل عملاً تقتضيه الطبيعة والفطرة اقتضاء حتماً أو غير حتم وهو يعتقد سوء مقبته تجده في عمله ضميماً لا يبلغ الغاية منه . أنظر لمن بحمله الغضب على الضرب وهو يخاف الله أو عقوبة الحاكم كيف يكون ضربه دون ما تباينه قوته لولا ذلك الخوف وربما يكون في وقت الضرب ناسياً لمراقبة الله وغير متفكر في عقوبة الحكومة ولكن نسيان ما انطوت عليه النفس وعدم ملاحظته والتفكر فيه لا يبطل أثره . وتأمل كيف إن العرب ما أتقنوا فن الموسيقى في أيام حضارتهم مع اشتغالهم به مجارة للطبيعة الميالة إليه ، وما ذلك إلا لأن فقهاءهم يذمونهم ويحرمون بعض آلاته

## باب التربية والتعليم

﴿ أميل القرن التاسع عشر ﴾

(٧) من هيلانه إلى أراسم في ٣ أبريل - سنة - ١٨٥

قد أتاني السيد ... بشيء من أخبارك بعد طول تطاعي إليها فاطمأن قلبي قليلاً